الفصل الثاني

المنهج الدعوي
في توثيق علاقة المسلم
بربه وبمجتمعه من خلال السورة

لقد جاء الإسلام بمنهج دعوى فريد ربط المسلم بربه وبمجتمعه، وأقام هذا الرباط على أسس عقائدية، وشعائر عبادية، ومعاملات أخلاقية قد لا يوجد لها مثيل في أي دين آخر سماوي أو أرضي فبالنسبة لتوثيق علاقة المسلم بربه، أقام هذه العلاقة على العقيدة، لأن العقيدة الصحيحة لها دورها الفعال، وأثرها القوي في تسيير دقة الحياة، والاتجاه بها نحو مجتمع أفضل، وحياة أقوم، وهي تمثل خصائص المسلم العليا، لأنها تمتزج بعنصره الروحي، وبهذه الخصائص يرتفع المسلم كإنسان عن مستوى الحيوانية، وإذا ما تبوأت مكانتها في النفوس،وتجاوبت مع الفطرة الصحيحة، فإنها ترتفع بالإنسانية إلى وجودها الأسمى، وكمالها المطلق فتصنع غدا مشرقا، وتدفع بالحياة إلى طريقها الصحيح الذي يريده الله تعالى، ومن ثم كانت عناية المنهج الدعوي بتوثيق علاقة المسلم بربه عن طريق غرس هذه العقيدة فيه.

أما بالنسبة لتوثيق علاقة المسلم بمجتمعه، فالمنهج الذي أسس هذه العلاقة هو منهج إسلامي، ودين اجتماعي بمعنى كلمة الاجتماع، وهو مدني بطبعه وروحه، وفي أصوله لبنات قوية لبناء الأسرة وتكون الأمم، وفي تعاليمه عمد تشيد عليها المجتمعات القوية، فقد أفاض المنهج الدعوي على المعاملات أشعة من روحه وسبغها بمسحة خاصة وألبسها لباس التقوى، ومزجها بالعقيدة الطاهرة، وجعلها جزءاً من الدين، فالدين المعاملة حتى تجرى المعاملات على صراط سوي بين المسلم وأخيه المسلم.

ومن أجل ذلك كان اهتمامنا بهذا الباب الذي جاء تحت عنوان "المنهج الدعوي في توثيق علاقة المسلم بربه وبمجتمعه من خلال السورة.

لقد جاءت سور كثيرة في القرآن الكريم، تدور حول توثيق علاقة المسلم بربه وتثبيت هذه العلاقة في النفوس، وتعميقها في القلوب، متخذة الأساليب المتنوعة والتراكيب المختلفة التي تؤدي إلى دوامها وثباتها، وهذه السور هي السور المكية، وقد اشتملت على معظم القرآن الكريم لأنها تستهدف بناء المجتمع الإسلامي على أسس قوية وعقيدة صحيحة.

ومن بين هذه السور أيضاً سور مدنية كسورة المجادلة التي نحن بصدد الحديث عنها، فقد تضمنت هذه السورة الحديث عن قضايا عقائدية، منوطة بتوثيق علاقة المسلم بربه، كقضايا قرب الله تعالى من عبده وسماعه مناجاته، وقضايا الغيب وقضايا الولاية لله تعالى، وقضايا البعث، وقد علل الله عز وجل لتشريعه أحكام الظهار بقوله تعالى: ﴿... ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...﴾[سورة المجادلة.٤]، ومن هذا نفهم أن التشريعات الإسلامية كلها تنبثق عن الإيمان بالله والرسول وقبولها علاقة الإيمان بالله والرسول، والالتزام بها يعمق الإيمان بالله والرسول، وهذا يعرفنا حكمة من حكم مجئ هذا الموضوع في مقدمة السورة التي تتحدث عن محاربة الله والرسول، وبعد السورة التي أمرت بالإيمان بالله والرسول ﷺ.

التعريف اللغوي للإسلام:

هو "إظهار الخضوع والقبول لما أتى به سيدنا محمد ﷺ به يحقن الدم"[1].

التعريف الشرعي للإسلام:

ويعرف الإمام الراغب الأصفهاني الإسلام في الشرع بأنه على ضربين أحدهما: أنه فوق الإيمان: وهو أن يكون مع الاعتراف، اعتقاد بالقلب، ووفاء بالفعل،

---

(١) لسان العرب لابن منظور، جـ ١٥، ص ١٨٦.

واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر، كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة البقرة:١٣١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ...﴾ [سورة آل عمران:١٩] وقوله تعالى: ﴿...تَوَفَّنِى مُسْلِمًا ...﴾ [سورة يوسف:١٠١] أي اجعلني ممن استسلم لرضاك، ويجوز أن يكون معناه اجعلني سالما عن أسر الشيطان حيث قال: ﴿...وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الحجر٣٩:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿... إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة النمل:٨١] أي منقادون للحق مذعنون له، وقوله تعالى: ﴿... يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [سورة المائدة:٤٤]، أي الذين انقادوا من الأنبياء الذين ليسوا من أولي العزم لأن أولي العزم "من الرسل" الذين يهتدون بأمر الله ويأتون بالشرائع، وهو الاعتراف باللسان وبه يحقن الدم حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل"[1]، وهو الذي تذكره الآية الشريفة دون الإيمان وإياه قصد بقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ ...﴾ [سورة الحجرات:١٤]، فالمسلم معناه "المخلص لله في عبادته من قولهم سلم الشيء لفلان خلص له فالإسلام معناه إخلاص الدين والعقيدة لله تعالى"[2].

وهذا التعريف يرتبط مع المعنى اللغوي ارتباطا وثيقا، وسواء نظر الإنسان إلى المعنى الشرعي أو المعنى اللغوي فإنه يجد أن هذا اللفظ جامع شامل لكل صلاح منشود في توثيق علاقة المسلم بربه "فكلمة الإسلام لا تدل على زمان ولا مكان فهي لا تشير إلى زمن تتقيد به، ولا إلى مكان يحدها"، وتضعنا هذه الكلمة مباشرة في

---

(١) مفردات القرآن للراغب الأصفهاني، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠، ص ٤٩٣.
(٢) الفخر الرازي، جـ٢، المطبعة الخيرية سنة ١٣١٨هـ ص ٤٢٣.

جو عالمي مطلق، بل في جو عالمي يتخطى حدود هذا العالم الأرضي – إذا أمكن ذلك – فلا يتقيد به ولا يتحدد بحدوده"[1].

فالإسلام لابد أن يكون صفة راسخة في نفس المسلم حتى تتوثق علاقته بربه ولا يكتمل هذا الإسلام إلا إذا طبق المسلم أركانه التي جاءت في حديث سؤال جبريل عليه السلام لرسول الله ﷺ. لذلك كان لابد من التعرض لأركان الإسلام والوقوف على أثر هذه الأركان في توثيق علاقة المسلم بربه.

أركان الإسلام :

لقد جاء حديث سيدنا جبريل موضحا أركان الإسلام وأركان الإيمان فجاءه في سؤاله رسول الله ﷺ عن الإسلام فأخبر النبي ﷺ بأن الإسلام يتضمن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسوله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله الحرام فأما عن الركن الأول أن لا إله إلا الله:

"إن الشهادة تعني العلم والإعلام والأخبار والبيان ولهذا سمي الشاهد شاهدا لأنه يخبر بما علم وتتضمن كلمة الشهادة الإقرار والاعتراف والاعتقاد فإن الشاهد يعتقد صحة ما يشهد به ويخبر عنه فإذا شهد مالا يعتقده كان شهادة كاذبة لأن اختياره لا يطابق اعتقاده... فمعنى شهادة أن لا إله إلا الله أني أعلم وأقر وأعترف وأعتقد بأن المعبود الحق الذي يستحق العبادة هو الله سبحانه وتعالى وأن أبين ذلك وأظهره بلساني وأفعالي وسلوكي.

---

(١) عبد الحليم محمود، الإسلام والإيمان، الطبعة الثانية، دار النصر للطباعة.

وهذا ما يسمى بتوحيد الألوهية وهو إقرار الله تعالى بالعبادة وحده، وهناك نوع هو توحيد الربوبية ومعناه هو "الاعتقاد بأن الله وحده هو رب كل شيء ومليكه لأن الرب تعني السيد والمالك والمدبر المتصرف والمتكفل بمصلحة الإنسان وهذه المعاني لا يملكها ولا يتصف بها غير الله سبحانه، أما غيره فهو مربوب الله سبحانه".

دلالة توحيد الربوبية:

إن توحيد الربوبية له دلالات كثيرة فما من شيء في هذا الكون من أصغره إلى أكبره، إلا وهو يشهد بربوبية الله للعالمين وبالتالي فهذا الإله الحق للعالمين ولا يمكن لهذا الكون العجيب وهذه المخلوقات الكثيرة أن تكون سائرة ومخلوقة نتيجة الصدفة فعلى المسلم أن يكون مقرا ومعترفا اعترافا راسخا بربوبته للخالق سبحانه وتعالى وانفراده بالعبودية، فهذا إقرار جبلت عليه البشرية وفطرت عليه قال تعالى مخبرا عن جواب الكفار عن معرفتهم بهذه الربوبية: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة الزُّخرُف:٨٧] .

معنى شهادة أن لا إله إلا الله:

إن معنى شهادة أن لا إله إلا الله هي شهادة المسلم أن لا معبود له إلا الله فكأنه أيقن: "أن لا مطمئن إليه ولا مستجار منه ولا محبوب ولا معبود ولا مالك ولا مطاع ولا معظم ولا معتصم به ولا سيد ولا حاكم إلا الله" وعلى هذا فشهادة الإنسان أن لا إله إلا الله لا تعتبر إلا باجتماع هذه المعاني.

١- مشاهدة أن لا إله إلا الله بالعقل والقلب.

٢- الشهادة على هذا باللسان.

٢- أن تكون الشهادة جازمة لا تردد فيها، فيها جزم على ما يحلف عليه فمن لم يشهد بلسانه أنه لا إله إلا الله عنادا وكبرا فهو كافر، ومن لم يشهد عقله وقلبه أن لا إله إلا الله أو كان مترددا في ذلك فهو منافق إن نطق بالشهادتين بلسانه وكافر إن لم ينطق". وعلى هذا فإنكار هذه الشهادة أو جحودها من بعض البشر مكابرة ولا يعني ذلك خلو فطرتهم من الإحساس العميق بوجود الخالق سبحانه وتعالى.

الشطر الثاني من الركن الأول:

شهادة أن محمدا رسول الله ﷺ:

إن الشطر الثاني من الركن الأول هو الإقرار والاعتراف بنبوة محمد ﷺ فلا يتم إسلام المرء إلا بالإتيان بها، فهي المكملة والمتممة لهذا الركن، فقد قرن الله تعالى طاعة رسوله ﷺ بطاعته تعالى، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ...﴾ [سورة النور:٥٤]، بل جعل طاعة رسوله ﷺ طاعة له تعالى فقال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ...﴾ [سورة النساء:٨٠]، وبعد أن ظهر الدليل القاطع على نبوة سيدنا محمد ﷺ فإن إنكار نبوته أو عدم الاعتراف والإقرار بالشهادة له، كفر ونقص في العقل وجحود ما بعده جحود، قال تعالى مخبرا عن سعة رحمته وحيثيات هذه الرحمة ﴿...وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ ...﴾ [سورة الأعراف١٥٦ :١٥٧].

أهمية كل من الشهادتين بالنسبة للأخرى:

إن كلا من الشهادتين متمم للآخر ومكمل له ومقترن به، ونجد ذلك في الإعلان بها عند الدخول في الإسلام، والإعلام بها عند الآذان، والإعلان بها عند قراءة التشهد في الصلاة، بل يتوقف عليها نجاة المرء عند موته، وفي سؤال قبره: "وإن هاتين الشهادتين لا تنفصل إحداهما عن الأخرى، إن شهادة أن لا إله إلا الله تتممها شهادة أن محمداً رسول الله، إذ أن شهادة أن لا إله إلا الله كما سنرى وتقتضي سلوكا معينا ومعاني معينة، ولها حقوق وعلى صاحبها واجبات، ولصاحبها جزاؤه وعلى تاركها عقابه، وهذا لن يعرف إلا بواسطة الرسول الذي قامت كل الأدلة الصحيحة المعقولة، والمنقولة على أنه رسول الله حقا، لذلك كان التلازم كاملا بين شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادة أن محمدا رسول الله، ويتضح هذا أكثر إذا عرفنا معنى "أشهد أن لا إله إلا الله".

أهمية الشهادتين بالنسبة للإسلام:

إن للشهادتين أهمية كبيرة بالنسبة لتوثيق علاقة المسلم بربه "فإذا كان الإسلام لا يقوم بلا أركان، فإن الإسلام وأركانه الأربعة لا يقوم بلا شهادتين بل لا يكون موجودا أصلا فالشهادتان بالنسبة للإسلام كله، كالروح بالنسبة للجسد، فكما أن كل ذرة من ذرات الجسد لا تكون بها حياة إلا بالروح، فكذلك "لا إله إلا الله محمد رسول الله" هي حياة كل جزء من أجزاء الإسلام فأي عمل يعمله الإنسان من الإسلام لا يكون نابعا من هذا الأصل يعتبر ميتا وهو في ميزان الله معدوم ولذلك فإن الكافرين لا قيمة لأعمالهم عند الله ولو كانت صالحة، لأنها ميتة يقول الله تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الفرقان:٢٣]

وحتى المسلم إذا عمل عملا مهما كان صالحا ولم يكن عمله فيه روح الشهادتين فإنه يكون غير مقبول".

قال ﷺ: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه"[1]. وقال تعالى مادحا رسوله ﷺ ﴿...وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ ...﴾ [سورة الفتح:٢٦].

نواقض الشهادتين:

إن النطق بالشهادتين ركن أساسي من أركان الإسلام "فمن أخل بواحدة منهما كفر ومن لم يعمل بمقتضاهما كفر كأن نطق بشهادة أن لا إله وأنكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة"[2] وهناك أدلة من حياة الصحابة رضوان الله عليهم وذلك مثل ما صنعه سيدنا أبو بكر رضي الله عنه في محاربة المرتدين بعد موت رسول الله ﷺ. ومن هذه النواقض التي تهدم عرى الإسلام وتنقض الشهادتين:

أ ـ التحليل والتحريم من دون الله:

قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [سورة المائدة:٥٠]. ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير والناهي عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء، والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات التي يضعونها بأهوائهم وآرائهم، وكما يحكم به التتار من

---

(١) البخاري، جـ١، كتاب الإيمان، ص ٣٢٥٠.
(٢) محمد قطب، لا إله إلا الله عقيدة وشريعة ومنهاج حياة، دار الشروق، ص ١٤٣.

السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم..."[1] فإذا الذين يشرعون بغير ما أنزل الله تعالى قد نقضوا لا إله إلا الله، لأنهم جعلوا من أنفسهم أندادا لله تعالى فأخذوا يشرعون ويحللون ويحرمون ويخالفون ما أحاله الله أو ما حرمه تعالى.

ب – الرضا مع العلم بتشريع مخالف لما أنزل الله ناقض أيضا:

إن كان المحللون لما حرمه الله، والمحرمون لما أحل الله تعالى قد نقضوا بصنيعهم هذا "لا إله إلا الله" فإن الرضا – أيضاً – بأن تشريع يخالف شريعة الله ناقض للا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ ...﴾ [سورة النساء:٦٠]، وقال ﷺ: "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون..."[2] وقال أيضا ﷺ: "إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون..."[3].

(فالذين يرضون هذا الصنيع، ويتبعونه قد جعلوا من هؤلاء المشرعين أندادا لله فنقضوا بذلك لا إله إلا الله، التي تقضي بأنه لا أنداد له سبحانه، ولا شركاء، وكأنهم قالوا: لقد قال الله، وقال هؤلاء غير ما قال الله، ونحن ارتضينا ما قاله هؤلاء من دون الله، وقد حكم الله فأحل وحرم، وحكم هؤلاء فحرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله، وقد أرضينا نحن حكمهم واتبعناه)[4].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، جـ٢، ٦٥ وما بعدها.

(٢) قال (ﷺ) "ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم غنها تختلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون، ويفعلون مالا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل". رواه مسلم.

(٣) قال (ﷺ) "إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع" رواه مسلم.

(٤) محمد قطب، لا إله إلا الله، ص ١٤٧.

جـ- اعتناق مذهب من المذاهب التي تبعد الدين عن الحياة:

إن هناك مذاهب كثيرة تدور على الساحة، وهذه المذاهب تهدم ولا تبني، وتفسد ولا تصلح وتعادي الإسلام وتحول بين المسلم وبين توثيق علاقته بربه، والإسلام بريء كل البراءة من هذه المذاهب الهدامة، كالشيوعية، والاشتراكية، والقومية، والعلمانية وغيرها من هذه المذاهب التي يعتنقها - للأسف - بعض المسلمين الذين وقعوا في حبائل هذه المذاهب، وأصبحوا يدعون باسمها، وينشرونها، ويدافعون عنها، ومعظم هذه المذاهب تدعو إلى هدم الدين، فمنها ما يدعو إلى فصل الدين عن الدولة (لا سياسة في الدين ولا دين في السياسة) والإسلام ينكر أمثال هذه الأفكار قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [سورة الأنعام:١٦٣].

د- الموالاة لأعداء الله ناقض أيضا:

إن الموالاة لأعداء الله تعالى من النواقض التي تمنع توثيق علاقة المسلم بربه، يقول الشيخ محمد قطب: "إن المودة في معناها الميل القلبي، والتناصر والمحبة، وهذه صفة لا ينبغي أن تكون لأعداء الله قال سبحانه: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ ... ﴾ [سورة المجادلة:٢٢]. إنما هي للمؤمنين قال سبحانه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [سورة التوبة:٧١]. أما الولاء القلبي لغير الله فغير جائز لأنه ينقض لا إله إلا الله، ولأنه يذوب الحاجز النفسي الذي يفصل المؤمن عن أعداءه فيميل إليهم، ويصبح مثلهم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ

﴿ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [سورة النساء:١٣٩]. هذا في ولاء القلب فكيف بالتعاون معهم لا على البر والتقوى ولكن على حرب الإسلام والمسلمين.

وقضية الولاء قضية هامة لأنها توثق علاقة المسلم بربه لذلك كان لابد من التعرض لها تفصيلا، خاصة وسورة المجادلة تتحدث عنها بإفاضة، ثم نعقب بعد ذلك بالحديث عن شريحة المنافقين لأن هذه الشريحة على نقيض الولاء لله تعالى.

الركن الثاني: الصلاة :

ذكر الله تعالى الصلاة في كثير من آياته، وحث على إقامتها وتأديتها كاملة الأركان والشروط، ووضح النبي ﷺ كيفيتها فقال ﷺ: "صلوا كما رأيتموني أصلي"[1]، فمكانة الصلاة في الإسلام مكانة كبيرة فهي الركن الثاني من أركان الإسلام وبتأديتها كاملة الأركان والشروط، وبكل الإخلاص يكون المسلم قد وثق علاقته بربه، حيث إن الصلاة تمثل القرب من الله تعالى قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾ [سورة العلق:١٩] .

أثر الصلاة في توثيق علاقة المسلم بربه:

فليس هناك شك في أن الصلاة تمثل العبودية الحقيقية، بما تزود الإنسان من الشعور بالخضوع لله وهي تعتبر اللقاء المتجدد مع الله، فالصلاة تجعل المؤمن دائما يستشعر عناية الله تعالى في كل أمره، وعون الله تعالى في كل سبيل، فمنه تكون النصرة والعون، وفي سبيل رضاه تستعذب الآلام، وبه تتحقق العزة، والمسلم يجد في كنف الله الراحة، والطمأنينة، ومن ثم كانت الوسيلة لتثبت قلب النبي ﷺ ضد

(١) البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، جـ٣، ص١٤.

محاولات أعداء الله تعالى. يقول تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [سورة الإسراء:٧٨-٧٩] .

وقد خص الله سبحانه وتعالى ذكر صلاة الفجر والتهجد لما لهما من أهمية في تربية الفرد وتوثيق علاقته بربه حيث إن هذا الوقت هو بداية يوم جديد عندما يفتتح بالقرآن الكريم والصلاة فيملأ نفس الفرد بالحركة والهمة والنشاط فقد امتلأ قلبه بنور آيات القرآن الكريم، والتهجد من العبادات التي تترك أثرا في الفرد، يحفزه إلى صلاح نهاره بين العباد كما صلح ليله بين يدي رب العباد.

الركن الثالث: الصيام وأثره في توثيق علاقة المسلم بربه:

ان الصوم له مكانته الكبيرة في توثيق علاقة المسلم بربه، فهو عمل سري بين العبد وربه، فهو يهذب المسلم، ويربي فيه ملكة المراقبة لله سبحانه وتعالى، لأن أمر الصيام موكول إلى نفس الصائم، لا رقيب عليه إلا الله فإذا ما روض المسلم نفسه على الصيام شهراً كاملاً، فإنه بذلك يوثق العلاقة بينه وبين ربه، ويتعود المراقبة في كل عمل يقبل عليه، والإخلاص في كل عمل دنيوي أو أخروي، وبذلك يكون مسلما صالحا في مجتمعه، مصلحا لنفسه ولمن حوله، لذلك ذكر الله تعالى غاية الصيام بقوله سبحانه: ﴿...لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٨٣] . فالتقوى غاية فإذا ما بلغها المسلم كان بذلك تقيا نقيا وروعا محسنا لغيره، مخلصا في عبادة ربه، فروح الصيام مراقبة الله فيه ولذلك يقول ﷺ: "من صام رمضان إيمانا واحتسابا..."[1] والصيام أيضا يعتبر هو الوقاية للمسلم من أي معصية لأنه يكسر حدة الشهوة

(١) البخاري، بحاشية السندي، جـ١، كتاب الإيمان، باب صوم رمضان...، ص١٦.

قال ﷺ: "يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج فإن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء..."[1]، ومن ثمرات الصيام أيضا التي توثق علاقة المسلم بربه، أن المسلم يتعود العطف على الفقراء والمساكين، لأنه في حالة جوعه وظمئه يتذكر من لا يملك طعاما لنفسه أو لأهل بيته في عموم أوقاته. لذلك ورد عن النبي ﷺ: "أنه كان أجود الناس.."[2]. ومن ثمرات الصيام بالنسبة للمسلم في توثيق علاقته بربه أنه يغرس فيه صفة المساواة وعدم التميز على الغير فالصيام بمراقبته درسا عمليا للمساواة فالكل في وقت واحد يبتدئ الصيام لا فرق بين غني وفقير أو قوي وضعيف أو رئيس أو مرءوس، لا فرق بين رجل وامرأة فالكل يشعر أثناء الصيام بالجوع والعطش، والكل في وقت واحد يفطر، فكل هذه الدروس، دروس عملية للمسلم لكي يعلم مدى المساواة في الشريعة الإسلامية.

الصوم الذي يريده الله:

دأب الناس في تعريفهم للصوم على أنه الامتناع عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس (والواقع أن هذا بيان للصوم بالنسبة إلى مظهره، وإلى الجانب السلبي منه فقط، فكلا الأمرين: المظهر والجانب السلبي لا يكونان حقيقة الصوم الذي كلف الله به عباده وفرضه عليهم، وهذا ما نلمحه من بداية هذه الآية ونهايتها فالله بدأها بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [سورة البقرة:١٨٣]

---

(١) البخاري، بحاشية السندي، جـ٣، كتاب النكاح، باب من لم يستطع الباءة...، ص٢٣٨.

(٢) البخاري، في الصوم، باب أجود ما كان النبي ﷺ يكون في رمضان، فتح الباري، جـ ٤، ص ١١٦.

الركن الرابع: الزكاة وأثرها في توثيق علاقة المسلم بربه :

إن الزكاة لها الأثر الطيب في توثيق علاقة المسلم بربه فالمسلم على يقين بأن ما استخلفه الله عليه من المال، إنما هو لهدف الإعمار في الأرض، والقيام على هذا المال بحسب ما فرض الله عليه، فهو يؤدي زكاته تزكية وتطهيرا لنفسه وماله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [سورة الشمس٩ :١٠] ، وهو على يقين بما فرضه الله عليه في هذا المال للفقراء والمساكين قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة المعارج٢٤ :٢٥] ، فالزكاة تجرد المسلم من عبودية المال، فالذي يبخل بالعطاء، ويشح على الفقراء، ويكنز ماله، يعتبره الرسول ﷺ عبدا لماله: "تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم..."[1]، والقرآن الكريم ينهي عن كنز المال فيقول تعالى: ﴿...وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة التوبة:٣٤] .

وبذلك يسمو المسلم بنفسه عن عبودية المال، لتكون عبوديته خالصة من هذه الشوائب وبذلك توثق العلاقة بينه وبين ربه تعالى.

الركن الخامس: الحج وأثره في توثيق علاقة المسلم بربه :

إن الحج له من الآثار العظيمة في توثيق علاقة المسلم بربه، فهو عبادة مالية بدنية، ويغلب عليها الروحانية وقد جعل الإسلام للحج وقتا محدودا وزمنا معينا والإسلام في ذلك (له اعتباران قويان جديران بالتقدير والرعاية، وذلك لما لهما من أثر في استدامة التقويم الخلقي، والتصفية الروحية التي حصل عليها المسلم بالصيام والقيام في شهر رمضان، وأول هذين الاعتبارين أن شوال أول شهر من أشهر الحج

(١) البخاري، كتاب الجهاد، باب الحراسة في الغزو في سبيل الله، جـ١٢، ص٣٦.

وثانيهما أنه يشير بالأشهر الحرم (ذي القعدة وذي الحجة والمحرم)، وقد عني القرآن الكريم بأشهر الحج عناية بالحج كما عنى بالأشهر الحرم عنايته بتطهير النفس من المظالم وكف العدوان والبغي".

نظرات عامة في الحج:

١ – الحج مجموعة رموز مرتبطة بأعمال: إن الحج رمز لاستسلام الإنسان لله إذا بلغه أمر الله بواسطة رسوله ﷺ إذ ينفذ المسلم الأمر بصرف النظر عن المعنى العملي لهذا الأمر (وما الطواف، والوقوف، والسعي، والحلق، والتقصير) وغيرها من أعمال الحج إلا رمز استسلام المسلم لأمر الله دون نقاش، وهو رمز ارتباط هذه الأمة بأبيها إبراهيم عليه السلام حيث نحى شعائره وطوافه بالبيت.

٢ – الحج مظهر عملي: فهو المظهر العملي للأخوة الإسلامية لأنه يحث الإنسان بشكل عملي على أنه أخل لكل مسلم في العالم قال تعالى:

﴿...وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ...﴾ [سورة الحجرات:١٣].

٣ – الحج مدرسة: يرتفع بها المسلم إلى آفاق أرقى وأعلى يتعلم بذل الجهد مع البر.

٤ – الحج يحيي في النفس الإنسانية مشاعر كثيرة: يحيي فيه مشاعر العطف على المسلمين والانتصار لمسائلهم، ومشاعر الجيل الإسلامي الأول الذي عاش هنا، وحياة الاضطهاد، من أجل العقيدة التي عاناها ومشاعر الولاء لله وللرسول وللمؤمنين، ومشاعر التوجه الخالص لله ومشاعر التجرد من

الدنيا والإقبال على الآخرة ومشاعر العزم على فتح صفحة جديدة مع الله.

٥ – وفي كل فعل من أفعال الحج عظات ومعاني.

٦ – والحج عودة بالمسلمين إلى مراكز المسلمين الأولى[1]، فالحج من العبادات التي تؤكد وتوثق علاقة المسلم بربه، فالإحرام في الحج ما هو إلا تجرد من شهوات النفس والهوى وبعدها عن كل ما سوى الله، فلا تفكير لها إلا في جلاله، وما التلبية أيضا إلا شهادة على النفس بهذا التجرد وهذا الالتزام المطلق، والامتثال لأمر الله وكذلك الطواف يكون بدوران القلب حول قدسية الله عز وجل فيجعل صاحبه متعلقا بالله ناسيا كل ما سوى الله، والسعي أيضا بعد الطواف هو تردد بين جنبات رحمة الله طلبا لمغفرته ورضوانه وضراعة لله من القلب المملوء بالخشية وتعلقا به سبحانه وهو بين الرجاء والخوف وكذلك كل مناسك الحج ما هي إلا توثيق لعلاقة المسلم بربه تعالى.

أثر الإيمان في توثيق علاقة المسلم بربه :

الإيمان يمثل أكرم صلة بين الإنسان وخالقه، ذلك أن أشرف ما في الأرض الإنسان وأشرف ما في الإنسان قلبه، وأشرف ما في القلب الإيمان ومن ثم كانت الهداية إلى الإيمان أجل نعمة،وأفضل ألاء الله على الإطلاق ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ... ﴾ [سورة الحجرات:١٧]

(١) سعيد حوى، الإسلام، ص ١٥١ – ١٦١.

ويقول تعالى أيضا: ﴿... وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ ...﴾ [سورة الحجرات٧ :٨] .

والإيمان ليس مجرد النطق باللسان، واعتقادا بالجنان، إنما هو عقيدة تملأ القلب، وتصدر عنها آثارها كما تصدر عن الشمس أشعتها، وكما يصدر عن الورد شذاه.

وللإيمان أركان ستة لا يتحقق إلا بها، وفقدان واحد منها فقدان للإثمان من أساسه ولهذا ينبغي لكل من أراد أن يكون مؤمنا حقا الإحاطة بها، وبناء النفس والجسم، والفرد والمجتمع على أساسها، وقد بين الرسول ﷺ هذه الأركان في حديث طويل فيه "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره".

والإيمان يؤدي إلى سعادة النفس وطمأنينتها، وذلك لا يتوافر على الدوام إلا بالإيمان، فالإيمان هو تصديق القلب وجزمه بوجود إله مدبر حكيم، كل ما يقع في ملكه بحكمته وإرادته[1]، ويقول تعالى في ذلك ليقضي بالحق: ﴿... وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ۝٤٩﴾ [سورة الكهف:٤٩] .

ويجعل الشيخ سيد سابق آثار الإيمان في النقاط التالية[2]:

١- تحرر النفس من سيطرة الغير: يقول تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ ...﴾ [سورة الأعراف:١٨٨] .

---

(١) محمد السيد الوكيل، أسس الدعوة وآداب الدعاة، دار الوفاء، ص ١٤٣.
(٢) السيد سابق، العقائد الإسلامية ن دار الكتب الحديثة، ص ٧٥ ـ ٨٠.

٢- الإيمان يبعث في النفس روح الشجاعة والإقدام والاستشهاد من أجل الحق، يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ... ﴾ [سورة آل عمران:١٤٥].

٣- والإيمان يقتضي الاعتقاد بأن الله هو الرزاق، يقول تعالى: ﴿۞ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾﴾ [سورة هود:٦].

٤- والطمأنينة أثر من آثار الإيمان، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الرعد:٢٨].

٥- والإيمان يرفع من قوى الإنسان المعنوية، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ...﴾ [سورة يونس:٩].

٦- والحياة الطيبة يعجل الله بها للمؤمنين في الدنيا قبل الآخرة، يقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل:٩٧].

الإيمان بالغيب: ويشمل الإيمان بالملائكة واليوم الآخر، ويقول الله تعالى في وصفهم: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [سورة عبس ١١ :١٦]. وعن اليوم الآخر يقول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الأنبياء:٤٧].

الإيمان بالوحي: ويقول الله تعالى في الوحي الذي يوحيه للرسل عليهم السلام: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ ... ﴾ [سورة الشورى:٥٢] .

الإيمان بالرسل: يقول الله تعالى في ذلك: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ ... ﴾ [سورة آل عمران:٨٤] .

الإيمان بالبعث: يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة المؤمنون١٥ :١٦] .

الإيمان بالقدر: وهو تصديق القلب بأن كل ما يحدث للإنسان في حياته إنما هو بتقدير الله عز وجل وهذا الإيمان يقتضي أن يعتقد المؤمن أن ما قدر له لابد من حصوله، ولا يمكن لشيء أن يدفعه إذا أراد الله وقوعه، وإيماننا بحكم الله تعالى يجعلنا نثق بأن كل ما ينزل بالإنسان إنما هو خير، ولو كان في ظاهره شرا، فيقول تعالى: ﴿...وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [سورة البقرة:٢١٦] .

الولاء يوثق علاقة المسلم بربه: إن قضية الولاء قضية هامة تعرضت لها سورة "المجادلة" في قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ ... ﴾ [سورة المجادلة:٢٢] .

الولاء لغة: جاء في لسان العرب [1] الموالاة: بأن يتشاجر إثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح، ويكون له في أحدهما هوى فيواليه أو يحابيه، ووالى فلان فلانا: إذا أحبه، والولاية – بالفتح – في النسب والنصرة والعتق، والموالاة – بالضم – من وإلى القوم، قال الشافعي في قوله ﷺ: "من كنت مولاه فعلي مولاه، يعني بذلك ولاء الإسلام"[2]. كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾ [سورة محمد:١١]، والموالاة ضد المعاداة، والولي ضد العدو، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [سورة مريم:٤٥]، وينقسم الولاء إلى ثلاثة أقسم:

الولاء لله تعالى وللرسول ﷺ: الولاء لله يكون بتجريد الطاعة والانقياد المطلق لله سبحانه بحيث تتوجه إلى الله تعالى معا في مشاعر الإنسان وجوارحه وخلجات نفسه وكل ما يملك أي أن الولاء لله يكون بإسلام الوجه لله سبحانه بالقصد والنية والطاعة والعمل اقتداء بمن نزل عليه، قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ...﴾ [سورة الأنعام١٦٢ :١٦٣]. وإن الولاء لله محض الحب له: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ...﴾ [سورة آل عمران:٣١].

تعريف البراء الذي هو عكس الولاء، هو البعد والخلاص والعداوة بعد الأعذار والإنذار[3].

---

(١) لسان العرب لابن منظور، جـ٣، ص ٩٨٥ – ٩٨٦.
(٢) الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب، جـ٥، ص ٥٩١، وقال حديث حسن صحيح.
(٣) محمد بن سعيد القحطاني، الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، الرياض، ص٩٢.

الولاء للمؤمنين، وانطلاقا من الولاء لله وللرسول يكون الولاء للمؤمنين ومعناه جلب المنافع لهم ودرء المفاسد عنهم، والوقوف معهم في حالة السراء والضراء يهمه ما يهمهم ويغمه ما يغمهم حتى يكونوا كما وصفهم الله ﴿... كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [سورة الصف:٤]، وكما وصفهم الرسول ﷺ "كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"[١]

لماذا يعطي الإنسان الولاء والمحبة لله :

يعطي الإنسان ولاءه ومحبته لله لأنه يستأهل هذه المحبة وهذا الولاء، ويستأهل هذه المحبة وهذا الولاء لكونه الخالق الأوحد للكون والحياة والإنسان، يستأهل هذه المحبة وهذا الولاء لما أسبغ على الإنسان من نعم ظاهرة وباطنة، يستأهل هذه المحبة وهذا الولاء لأن هذا الكون كله مسخر لمصلحة الإنسان، يستأهل هذه المحبة وهذا الولاء لما أنزل على البشرية من أنظمة حكم ومناهج حياة، يستأهل هذه المحبة وهذا الولاء لإجابته المضطر إذا دعاه وكشفه الضر والسوء عنه، يستأهل هذه المحبة وهذا الولاء لافتقار العبد إليه واعتماده في كل الأحوال عليه، قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ...﴾ [سورة إبراهيم:٣٢] وقال سبحانه في سورة النمل: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ...﴾ [سورة النمل:٥٩]، فإن لم يكن المؤمن على هذا المستوى اللائق من المحبة لله والولاء له والافتقار إليه والتوكل عليه والاستعانة به والشكران لأنعمه وفضائله فيكون كاذبا في دعوى المحبة ناقصاً عرى الإيمان.

---

(١) مسلم، م ٦، جـ١٦، باب النهي عن السباب، ص ١٤٠.

لماذا يعطي الإنسان ولاءه ومحبه للرسول ﷺ:

يستأهل الرسول ﷺ هذه المحبة وهذا الولاء لكونه عليه الصلاة والسلام الشخصية الكاملة المعصومة عن الخطأ والمنزهة عن العصيان، يستأهل هذه المحبة وهذا الولاء لكون سنته ﷺ هي في المرتبة الثانية بعد كتاب الله عزوجل، يستأهل هذه المحبة وهذا الولاء لكون طاعته ﷺ هي طاعة لله يستأهل هذه المحبة وهذا الولاء لكونه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أقام في الجزيرة العربية دعوة الإسلام، يستأهل هذه المحبة وهذا الولاء لكونه السراج المنير للعوالم والرحمة المهداة للبشرية وصدق الله العظيم في محكم تنزيله ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:٢١] .

فإذا كان الولاء لله تعالى يوثق العلاقة بين العبد وربه فإن الولاء لأعداء الله ينقض عرى الإيمان بالله سبحانه وتعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ...﴾ [سورة المجادلة:٢٢] . وقد حذر القرآن الكريم من إضعاف الشخصية المسلمة بموالاة الأعداء الذين لا يؤمنون بالله في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ ...﴾ [سورة آل عمران:١١٨] . وبقوله تعالى: ﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [سورة المائدة:٥١] . وبقول تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ...﴾ [سورة التوبة:٢٣] . ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ... ﴾ [سورة الممتحنة:١] .

مظاهر الولاء لله تعالى :

١ – الإيمان بالله: وهو الإيمان به إيماناً كاملاً بأنه إله واحد خالق قادر ليس كمثله شيء في صفاته وكماله وجلاله: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الشورى:١١] ، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ...﴾ [سورة الأنبياء:٢٢].

٢ – طاعته سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦].

٣ – توقير دينه واحترام شرعه: وهو توقير واحترام وطاعة لهذا الشرع الشريف منبعثا من النفس عن اختيار واقتناع عقلي وطمأنينة قلب.

٤ – الاستسلام المطلق لله والتوكل عليه ﴿...وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ ...﴾ [سورة الطلاق:٣] ، ويقول تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ...﴾ [سورة الفرقان:٥٨].

٥ – شكر الله على نعمائه وعطائه: ﴿... وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ...﴾ [سورة الزمر:٧] ، ويقول تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة النحل:٧٨].

٦ – الإقبال عليه سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الرعد:٢٨] .

المراقبة والمحاسبة وآثارهما في توثيق علاقة المسلم بربه:

إن من الصفات التي توثق علاقة المسلم بربه صفتي المراقبة والمحاسبة وقد جاءت في سورة المجادلة آيات تحث على مراقبة المسلم بربه ومحاسبته ومن هذه الآيات قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة المجادلة:٧] ، "أَلَمْ تَرَ " بقلبك وعقلك "أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ " برؤيتك لدقة نظام السموات والأرض ودقة ما يجرى في السموات والأرض، فمن رأى بقلبه أفعال الله علم أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض "مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ " أي ما يقع من تناجي ثلاثة نفر "إِلَّا هُوَ " أي الله "رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ "أي ولا أقل "أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ " يعلم ما يتناجون به، ولا يخفى عليه ما هم فيه "أَيْنَ مَا كَانُوا " أي مطلع عليهم يسمع كلامهم وسرهم ونجواهم، والملائكة أيضا مع ذلك تكتب ما يتناجون به مع علم الله وسمعه له "ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ " فيجازيهم عليه "إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " قال الإمام أحمد افتتح الآية بالعلم واختتمها بالعلم[1].

والإحسان مرتبة تشرف العامل والعمل لأنه أعظم مراتب التشريف الذي تجاوز به العبد مراتب العمل التكليفي المحض وذلك بزيادة في الفعل من جنس ما فرضه الله على العبد، وعندما يتحقق في عبد انتقاله بالتكليف إلى مراتب التشريف يكون قد علم العبد أن نفعه فيما فرض الله عليه، ويكون ذلك كمن فرض على نفسه قيام

---

(١) سعيد حوى، الأساس في التفسير، م١٠، ط٤، دار السلام، ١٩٩١، ص ٥٧٨٨.

الليل بالصلاة، فإنه علم الصلاح في عين الفرض فزاد عليه بالإحسان وعلم أن الله يسمعه فقام بصلاح القول وهو تلاوة القرآن وعلم أن الله يراه فلم تكسل جوارحه بل نشطت إلى طاعة بارئها. ومن هنا ينشأ يقين العبد في أن الله يسمعه ويراه فقد تبصر وأصبح ذا بصيرة.

وعندما يسمو العقل بالتبصر ويسمو القلب بالبصيرة فإنه ينتقل من جانب الأداء الحركي للفرائض إلى جانب الأداء الاستسلامي قلبا وجوارحا فلا ينشغل العقل والقلب إلا بعين التكليف. وبهذا فقد أحسن تبصرة وأحسن بصيرة وأحسن قوله لمن يسمعه وأحسن عمله لمن يراه، إذا فقد وصل إلى مرتبة الإحسان، وهي التي وصفها النبي ﷺ بقوله: "وأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك"(١).

وهي قضية علمية بحتة.. فإنها تنشأ في علم العبد بدوام مراقبة الله له ووجوب مراقبته لنفسه كي لا تخرج عن مجال استحضار وجود الله السميع البصير، وإذا كان الإسلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام هي الإسلام والإيمان والإحسان، فإن الإحسان يشمل الثلاثة... فعلى العبد أن يحسن الإيمان وإحسان الإيمان إطلاق وحدانية الله وإحسان الإسلام هو فعل التكليف الشرعي على صور ثابتة من الله ورسوله وإحسان الإحسان هو أن تعلم أن الله يراقبك فيما تنطق وتعمل ليجازيك به. وذلك لقول الله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ... ﴾ [سورة الرعد:٣٣]، ويقول النبي ﷺ في وصيته لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: "أحفظ الله يحفظك، أحفظ الله تجده تجاهك"(٢).

---

(١) الترمذي، في كتاب صفة القيامة، جـ٤، ص ٥٧٦، أحمد، جـ١، ص ٢٩٣.
(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، ص ٣٩٧، ٣٩٨.

ومن هنا نرى أن الإحسان منقسم في ذاته إلى العلم والمراقبة، لأنه لا يتحقق أي مقام في الإسلام بغير علم، وترى من ذلك أن أفضل ما يلزم به العبد نفسه هو دوام مراقبة الله على علم يقيني "فعن مالك ابن دينار... جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة... قيل له... ومن يسكنها؟ قال.... يقول الله عز وجل... وإنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني والذين انثنت أصلابهم من خشيتي وعزتي وجلالي إني لأهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب" وفي موضع آخر... قال عبد الله بن دينار خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى مكة فغرسنا في بعض الطريق فانحدر عليه راع من الجبل فقال له يا راعي، يعني شاة من هذه الغنم؟ فقال إني مملوك، فقال: قل لسيدك أكلها الذئب، قال: فأين الله؟ قال فبكى عمر رضي الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه، وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمة، وأرجو أن تعتقك في الآخرة.

وإن تحققت أهداف المراقبة في النفس كان لذلك الأثر البين عليها ببدء المحاسبة خوفا من المطالبة... حيث إن محاسبة العبد نفسه أولى مراتب النجاة من أهل المطالبة، فينشأ من المحاسبة المطالبة... وهي العلم اليقيني بأن العبد مقصر في حق الله بعدم الوفاء بكل جوانب الشرع ومقصر في حقوق الخلق بما فرضه الله حقا على المسلمين فيلزم نفسه الوفاء قبل اللقاء لأن المطالبة في الحقوق لا تسقط بالتقادم، وإنما كلما تقادمت بها السنون زادت أعباؤها على النفس وبقيت إلى يوم الدين... مثال ذلك ما وضحه النبي ﷺ: "أتدرون من المفلس؟ قالوا: يا رسول الله... المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وزكاة وصيام وحج فيأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأخذ مال هذا

ونبش عرض هذا وضرب هذا وسفك دم هذا فيؤخذ لهذا من حسناته ولهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار". وفي هذا بيان إبقاء المطالبة بين يدي الله رب العالمين.

وإن وصل العبد إلى هذه المكانة لقى الله بلا وزر إن هو أدى ما عليه من حقوق المطالبة لأن حق الله يقوم على المسامحة وحقوق العباد تقوم على المشاحة. ومن ذلك تنشأ المعاتبة إن قصرت النفس في الوفاء عند امتلاك القدرة أينما وجدت سواء كانت مالا أو صحة أو علما فإذا لم تسلم النفس مختارة في هذا وجبت العقوبة عليها، والعقوبة في الشق الدنيوي تتمثل في حرمانها من حق التمتع بنعمة الله تأديبا وتهذيبا.

مظاهر الولاء للرسول ﷺ:

١- حبه ﷺ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ... ﴾ [سورة التوبة:٢٤] .

٢- تعظيمه وتوقيره عليه الصلاة والسلام ﴿ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ... ﴾ [سورة الفتح:٩] .

٣- الثقة بكل ما أخبر به ﷺ: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ [سورة النجم:٤] .

مظاهر الولاء للإسلام والمسلمين:

١- الالتزام العملي والفكري بالإسلام عقيدة وعبادة وخلقا.

٢- الأخوة والتناصر: يقول ﷺ: "انصر أخاك ظالما أو مظلوما"[١].

---

(١) البخاري، جـ ١٠ ن ص ١٧٩.

٣- التآلف والتواد: بقوله ﷺ: "ألا أخبركم بأكملكم إيمانا؟ أحاسنكم أخلاقا الموطئون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون"[١].

٤- الإيثار: وهو تقديم حظ الغير على حظ النفس.

٥- التعاون: يقول تعالى: ﴿... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ...﴾ [سورة المائدة:٢].

٦- التضامن والاتحاد: يقول ﷺ: "يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ في النار"[٢].

ومن هنا ما تناولته سورة المجادلة من موضوعات عديدة. موضوع الحديث عن المنافقين إذ ورد في وصفهم آيات كثيرة من السورة تكشف عن ولائهم وتدبيرهم المكائد ضد الإسلام وأهله مثل: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾﴾ [سورة المجادلة:٨]. ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة المجادلة ١٤: ١٩].

---

(١) الهيثمي في مجمع الزوائد، جـ٨، ص ٢١ وعزاه للطبراني في الأوسط.
(٢) النسائي، كتاب تحريم الدم، جـ٧، ص ٩٢.

وإن خطر المنافقين على الإسلام لهو من خطر الكفار، فالكفار يصرحون بعقيدتهم وعدائهم للإسلام، أما المنافقون فيلبسون ثوب الإسلام في الظاهر ويبطنون الحقد والعداوة للمسلمين، لذا قال سبحانه وتعالى: ﴿... هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ...﴾ [سورة المنافقون:٤]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ...﴾ [سورة النساء:١٤٥].

وسبب نزول الآية الكريمة: "ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى... إنما النجوى من الشيطان" أنه كما خرج ابن جرير عن قتادة قال: "كان المنافقون يتناجون بينهم وكان ذلك يغيظ المؤمنين ويكبر عليهم، فانزل الله الآية"[1]. كما نزلت الآيات الكريمة المتتالية: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [سورة المجادلة١٤ :١٩] في فريق من المنافقين اتخذوا من اليهود الذين غضب الله عليهم أولئك لهم من دون المؤمنين، يوادونهم ويناصرونهم ويستنصرون بهم، ويتآمرون معهم ضد الإسلام والمسلمين الصادقين وينقلون لهم الأخبار، ويعملون بآرائهم، إلى غير ذلك مما يدل عليه فعل التولي[2]. وقد نزلت هذه الآيات في المنافق "عبد الله بن

(١) السيوطي، أسباب النزول للسيوطي، دار إحياء الكتب العربي، ص ١٩٢.
(٢) الميداني، ظاهرة النفاق، ص ١٠٩.

نبتل"[1]، وقد قال الرسول ﷺ : "يدخل عليكم رجل ينظر بعين شيطان أو بعيني شيطان - فدخل رجل عيناه زرقاوان - وكان هو "عبد الله بن نبتل "الذي والى اليهود وسب الرسول عليه السلام ونقل أخباره إلى اليهود. وعندما فاجأه الرسول عليه الصلاة والسلام بذلك كذب وأقسم أنه لم يفعل"[2].

والنفاق في نظر الإسلام آفة خطيرة من أعظم الآفات الاعتقادية والسلوكية تحلق الدين، وتستأصل المروءة والخلق، بل تجعل من المنافق إنسانا لا وزن له ولا اعتبار ولا كرامة عند الله، وعند أهل التقوى والمغفرة. فالمنافق دائما ما يكون مواليا ومحالفا لغير المسلمين ضد المسلمين.قال تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ... ﴾ [سورة الحشر:١١]، ويكشفون عورات المسلمين لأعدائهم ويخذلون في صفوفهم. فقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ... ﴾ [سورة آل عمران:١٦٨]، ويكون النفاق أشد خطرا على الإسلام والمسلمين حينما يبتلى به بعض دعاة الإسلام في تلقهم وطاعتهم للحكام وهم يلهثون وراء المناصب والامتيازات الدنيوية. وذلك لأنهم في نظر المسلمين القدوة التي يجب أن يقتدوا بها.

النفاق في اللغة:

جاء في لسان العرب: "أن النفاق هو الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر، مشتق من نفقاء، وقد نافق منافقة ونفاقا، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه، وإن كان أصله في

(١) محمود محمود حجازي، التفسير الواضح، م٣، ص٤١٢؛ الصابوني، صفوة التفاسير، جـ١، ص٣٤٢.
(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير، جـ٢٩، ط ٣، دار إحياء التراث بيروت، ص ٢٧٣، ٢٧٤.

اللغة معروفا، وفي حديث حنظلة: نافق حنظلة، أراد أنه إذا كان عند النبي ﷺ أخلص وزهد في الدنيا، وإذا خرج من عنده ترك ما كان عليه ورغب فيها، فكأنه نوع من الظاهر والباطن، ما كان يرضى أن يسامح به نفسه، وفي الحديث: أكثر منافقي هذه الأمة قراؤها، أراد بالنفاق ههنا الرياء كليهما إظهار غير ما في الباطن.

النفاق في الشرع والإصطلاح:

ينقسم النفاق إلى قسمين: "أحدهما النفاق الأكبر، وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ويبطن ما يناقض ذلك كله أو بعضه وهذا هو النفاق الذي كان على عهد رسول الله ﷺ ونزل القرآن بذم أهله وتكفيرهم وأخبر أن أهله في الدرك الأسفل من النار، والثاني النفاق الأصغر وهو نفاق العمل وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة ويبطن ما يخالف ذلك"[1] ويتضح من هذا التعريف أن النفاق الأكبر هو النفاق الاعتقادي، والنفاق الأصغر هو النفاق العملي.

تاريخ المنافقين ومواقفهم:

يعتبر النفاق أشد خطرا على الإسلام من خطر الكفر، وذلك لأن المنافقين ليسوا بعيدين عن مجالس المسلمين ومجتمعاتهم، ولذا كان من اليسير عليهم أن يصبحوا يدا وعونا لأعداء الإسلام ضد المسلمين، وواقع الأمر أن النفاق كفكرة قد نبت في مكة، ولكنه لم يظهر ويعلن كأسلوب عمل إلا في المدينة عندما وجد الأرض الخصبة لذلك متمثلة في مواقف "عبد الله بن أبي بن سلول" رأس المنافقين وأتباعه الذين

---

(١) الحنبلي البغدادي، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، ط٥، دار الحديث، ص٥٣٠، ٥٣١.

وجدوا في الدين الإسلامي حريا على سلطانهم الدنيوي، وأبرز مثال على ذلك أن "عبد الله بن أبي" كان ينتظر تتويجه ملكا على المدينة لولا مجئ النبي ﷺ واتخاذ المدينة حاضرة وموطنا للمسلمين.

وهنا يبدو أمامنا تساؤل ألا وهو، لماذا لم يترعرع النفاق إلا في المدينة رغم وجود جذوره في مكة؟ وللإجابة على هذا نقول: "أنه عندما تنتصر الدعوة وتعلو راية الإسلام وتستأصل قوة الكفر ويذهب سلطان الكافرين وتكون القوة والمنعة للمسلمين عند ذلك يمكن أن يوجد المنافقون الذين لم يؤمنوا مع المؤمنين ولم يبقوا على كفرهم ظاهرين معروفين مع الكافرين خوفا من سطوة المسلمين فيبطنوا الكفر ويظهروا الإسلام لذلك لا نجد نفاقا ولا منافقين إذا ما ظهرت وعلت سطوة الكفار لأن المنافق لا يخاف على نفسه حينئذ ولا حاجة له في النفاق، لذلك إذا تتبعت تاريخ المنافقين في مكة والمدينة لا تجد منافقين في مكة وذلك لأن المسلمين كانوا قلة مستضعفين لا حول لهم ولا قوة ولا سلطان وإنما السلطان لكفار قريش ولكن بعد أن هاجر النبي ﷺ والمسلمون إلى المدينة وصارت للمسلمين قوة وسلطان وانتشر الإسلام في المدينة ظهر النفاق والمنافقون".

وقد بدت مواقف المنافقين في الكيد للإسلام وهدم بنيانه الذي أقامه الرسول عليه الصلاة والسلام في المدينة واضحة جلية في إشعال نيران الفتنة بين المسلمين لتفريق كلمتهم، فعلى ماء المريسيع بعد غزوة بني المصطلق وعندما حدث شجار بين أحد الأنصار وهو "سنان بن وبر الجهني" وأحد المهاجرين وهو "جهجاه بن مسعود بن سعد بن حرام الغفاري" على الماء، وشاء الله أن تخمد نيران هذا النزاع، ولهذا لم يستدرج رأس المنافقين "عبد الله بن أبي بن سلول" لهذه النهاية فأراد أن يشعل نار

الفتنة مرة أخرى بين الأنصار والمهاجرين باغار صدور الأنصار ضد النبي والمهاجرين قائلا: "سمن كلبك يأكلك" مشيرا إلى التكافل الذي أقامه الأنصار مع أخوانهم من المهاجرين عندما جاءوا إلى المدينة، وقال أيضا: "والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل"، وعندما بلغ الرسول ﷺ هذه الأقوال، أقسم "عبدالله بن أبي" كذبا أنه ما قال، فنزلت سورة "المنافقون" لتفضح هذا الكذب وهذا الكيد للمسلمين.

ولم يقتصر كيد المنافقين للإسلام على إشعال نيران الفتنة بين المسلمين بل امتد إلى ما هو أبشع من ذلك بالطعن في عرض الرسول ﷺ وزوجته عائشة متماثلا ذلك في "حادث الإفك" كما صورته سورة النور، وتثبيط حمية المسلمين عن صورتهم سورة التوبة حيث يقول الله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ ...﴾ [سورة التوبة:٨١]، ويقول تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ...﴾ [سورة التوبة:٤٩]، ومحاولة دنيئة منهم في مزاحمة الرسول ﷺ في الطريق لإيقاعه في منحدر وإيذائه، وهم الذين عناهم الله سبحانه في سورة التوبة بقوله: ﴿...وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ...﴾ [سورة التوبة:٧٤]، وفضلاً عن ذلك فقد حاولوا القضاء على الرسول ﷺ والمسلمين ببنائهم "مسجد الضرار" وطلبوا من الرسول الصلاة فيه للإيقاع به، ولكن الله لطف وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام بتحريق هذا المسجد وهدمه.

أقسام النفاق:

ينقسم النفاق إلى قسمين:

أولاً: النفاق الاعتقادي، وهو أن يتظاهر المنافق بالإسلام ويبطن الكفر ليقوم بدوره في محاربة العقيدة الإسلامية والتآمر على المسلمين، يقول الله تعالى عنهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة ٢: ٨-١٦]، ومن هذه الآيات نعلم أن المنافق نفاقا اعتقاديا غير مؤمن وهو في الدرك الأسفل من النار، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ...﴾ [سورة النساء: ١٤٥]، ويقع تحت هذا القسم من النفاق الاعتقادي الكثير من الفرق التي تنتمي إلى الإسلام ظاهريا ويكيدون له خفية أو جهرا مثل: النصيرية والإسماعيلية، والدروز، والبهائية، والدهرية، والفرق التي تخدم اليهود ومخططاتهم مثل الماسونية، وكذلك الذين ينتمون إلى الأحزاب العالمية التي

تعمل على تدمير الإسلام والمسلمين مثل الشيوعية والقومية والاشتراكية وغير ذلك[1].

ثانياً: النفاق العملي: "المنافق نفاقا عمليا هو الذي يعمل عمل المنافقين دون قصد أن يكون منافقا ولكن فعل ذلك لضعف إيمانه، ولهذا النفاق صور: فئة تستحي من الناس ولا تستحي من الله"، ويقول عنها عز وجل: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ ... ﴾ [سورة النساء:١٠٨]، ومنهم من يمشي بين الناس بأكثر من وجه بغرض الإفساد بين المسلمين وعنهم يقول النبي ﷺ: "تجدون الناس معادن، خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا وتجدون خيار الناس في هذا الشأن"، أي في ابتغاء الإمارة "أشدهم له كراهة وتجدون شر الناس الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه"، والذين يمدحون السلاطين والأمراء في حضرتهم ويذمونهم إذا ما خرجوا وعنهم قال عبدالله بن عمر: "كنا نعد هذا نفاقا في عهد رسول الله ﷺ، هذا فضلا عن خصال النفاق التي ذكرت في الحديث الشريف: "أربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها، إذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر"[2].

---

(١) عبد الله ناصح علوان، عقبات في طريق الدعوة وطرق معالجتها في ضوء الإسلام، دار السلام، ص ٣٥ ـ ٣٩.

(٢) مسلم، م١، جـ٢، باب خصال المنافق، ص ٤٦.

علامات النفاق والمنافقين:

عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ قال: "أربع من كن فيه كان منافقا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر وإذا عاهد غدر". إذا حدث كذب المعنى أن يحدث بحديث لم يصدق به وهو كاذب له، وفي المسند عن النبي ﷺ قال: "كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثا هو لك مصدق وأنت به كاذب"[1] قال الحسن "كان يقال النفاق اختلاف السر والعلانية والقول والعمل والمدخل والمخرج، وكان يقال أساس النفاق الذي بني عليه الكذب"[2].

وإذا وعد أخلف، وهو على نوعين: أحدهما أن يعد وفي نيته عدم الوفاء، وهذا يعد من أشر الخلق. قال الأوزاعي: "ولو قال" افعل كذا إن شاء الله تعالى وفي نيته ألا يفعل كان كذبا وخلفا". والثاني: أن يعد وفي نيته أن يفي ثم يبدو له فيخلف من غير عذر له في الخلف، قال رسول الله ﷺ: "من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله"[3].

وإذا خاصم فجر: ويعني بالفجور أن يخرج عن الحق عمدا حتى يصير الحق باطلا والباطل حقا وهذا مما يدعو إليه الكذب[4] قال رسول الله ﷺ: "إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم"[5].

---

(١) أبو داود في السنن، كتاب الأدب، باب في المعاريض، جـ٤، ص١٩٥.

(٢) الحنبلي، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، جـ٥، دار الحديث، ص٥٢٠.

(٣) الحنبلي، المصدر السابق، ص ٥٢١.

(٤) الحنبلي، المصدر السابق، ص ٥٢٢.

(٥) أخرجه مسلم، كتاب العلم، باب في الألد الخصام أربعة، جـ٤، ص ٢١٥٤، البخاري، جـ٥، ص ١٠٦.

وإذا عاهد غدر: إذا عاهد غدر ولم يف بالعهد وقد أمر الله بالوفاء بالعهد فقال تعالى: ﴿... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الإسراء:٣٤]، وقال: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ...﴾ [سورة النحل:٩١]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ...﴾ [سورة آل عمران:٧٧].

والخيانة في الأمانة بالتصرف فيها على خلاف ما يقتضيه الشرع الشريف، وهي قبيحة شرعا وعقلا، ومن شر أنواع الخيانة الغدر في المعاهدات وكل من تحالف مع إنسان على شيء ثم غدر كان منافقا[1]. فإن أؤتمن الرجل على أمانة فالواجب عليه أن يردها، قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ...﴾ [سورة النساء:٥٨]، وقال النبي ﷺ: "أد الأمانة إلى من ائتمنك"[2].

صفات المنافقين الخلقية:

يوضح القرآن الكريم صفات وأوصاف هؤلاء المنافقين الجسمية والسلوكية لتكون واضحة جلية أمام أعين المؤمنين، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾﴾ [سورة المنافقون:٤]، فيتصف هؤلاء القوم بجمال الجسم، ومن بين هؤلاء "عبد الله بن أبي بن سلول"، "جد بن قيس" معتب بن قيس" فقد كانت لهم أجسام ومنظر وفصاحة، وهذه الصفات احتمال تكرارها في المنافقين في كل حين.

---

(١) علي محفوظ هداية المرشدين، ص ٢٨٦.
(٢) أبو داود، كتاب البيوع، باب الرجل يأخذ حقه من تحت يده، جـ٣، ص ٢٨٨.

ومن بين أوصافهم الخلقية أنهم كالخشب المسندة فقد كانوا في مجالس النبي يبتعدون عن الجلوس في وسط المجلس مع المسلمين، بل كانوا يرتكنون بظهورهم إلى الجدران رغبة في عدم الاستماع والانتفاع مما يقوله الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن الجدير بالملاحظة أنه رغم ضخامة أجسامهم إلا أن الله قد أنزل الرعب والفزع في قلوبهم فقد كانوا يهلعون ويفزعون عند سماع أية صيحة حتى ولو كانت لمصلحتهم ومنفعتهم اعتقادا منهم أن هذه الصيحة تنذر بنازلة عليهم بما يكرهون، وذلك "لأنهم أعداء يلبسون ثياب أصدقاء وأهل ولاء".

ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾ [سورة المنافقون: ٦]، وهذه الآية توضح موقفهم من الرسول ﷺ واستكبارهم وطلبهم للزعامة وكفرهم الباطن وعدم ولائهم لله وللرسول وللمؤمنين، فكلما طلب منهم الذهاب إلى الرسول ﷺ لطلب المغفرة لهم من الله أداروا رءوسهم تعبيرا عن الرفض، ومن الجدير بالملاحظة والذكر أن هذه الصفات تتكرر على مر الأزمان في منافقي كل عصر وكل أمة.

ويقول الله تعالى عنهم: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ۝١٣﴾ [سورة الحشر: ١٣]، وهذا يدل على اتصافهم بالجبن والخذلان من المؤمنين والرعب المتمكن من قلوبهم، وأنهم يخافون المؤمنين ويرهبونهم أكثر من خوفهم ورهبتهم من الله عز وجل، وهذا لا يدل على الجبن فحسب، بل على الغباء والجهل أيضا فالله سبحانه أحق أن يخشوه أكثر من خشيتهم من المؤمنين

ولكن الله سبحانه وتعالى وضع فيهم هذه الصفة الخسيسة حتى يظلوا طوال حياتهم في رعب وهلع وقلق كلما رأوا المؤمنين أمام أعينهم.

صفات المنافقين الخلقية:

لقد دأب المنافقون على التخلق بالأخلاق الذميمة والأفعال السقيمة، وعلى رأس هذه الصفات، تلك الصفة القبيحة، وهي صفة الكذب والحلف بالإيمان الكاذبة، وهذه الصفة تلازمهم فيما يقولون من كذب إثباتا أو نفيا حتى في موقف حسابهم بين يدي ربهم يوم الدين، فيحلفون لله الإيمان الكاذبة على ما ينكرون أو ما يدعون، رجاء أن تنجيهم إيمانهم من عذاب الله، ظانين أن أكاذيبهم وأيمانهم تنفعهم عند الله، كما استطاعوا أن يستروا بها أنفسهم في الدنيا، واتبعوا هذا الطريق البغيض مع الرسول ﷺ ليستروا نفاقهم، وهذا ديدنهم دواما في كل قرن وفي كل عصر وأمة، فيقول الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾ [سورة المجادلة:١٨]، ويقول تعالى أيضاً: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ [سورة المجادلة:١٦]، أي أنهم اتخذوا أيمانهم سترا ووقاية وهي كاذبة فاجرة حتى يتخلصوا من القتل الذي كان سينزل بهم، ومنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، ولكن الله يعلم إنهم لكاذبون منافقون ولهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة[1].

كذلك تخلق المنافقون بصفة أخرى ألا وهي "موالاة أعداء الإسلام من اليهود والنصاري" لمنفعتهم الخاصة من ناحية، ومن ناحية ثانية ليكونوا معهم على

(١) انظر التفسير الكامل لهذه الآيات حول المتناقضين الكاذبين في: الفخر الرازي، التفسير الكبير، ط٣، جـ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص ٢٧٤، ٢٧٥؛ سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ، دار الشروق، ص ٣٥١٣؛ الصابوني، صفوة التفاسير، دار الرشيد، ص ٣٤٢، ٣٤٣؛ المنتخب في التفسير، ص ٨١١ ـ ٨١٣.

المسلمين، وقد فضحهم الله سبحانه وتعالى في آياته الكريمة: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [سورة المجادلة:١٤]. فتتحدث الآية الكريمة عن فريق من المنافقين اتخذوا من اليهود الذين غضب الله عليهم أولياء لهم من دون المؤمنين، يوادونهم ويناصرونهم ويستنصرون بهم، ويتآمرون معهم ضد الإسلام والمسلمين الصادقين، وينقلون لهم الأخبار ويعملون بآرائهم، إلى غير ذلك مما يدل عليه فعل التولي، "وأن هؤلاء القوم لا من المؤمنين الخلص ولا من الكافرين الخلص أي مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، وقد نزلت هذه الآية في "عبد الله بن نبتل" المنافق[1] الذي قال عنه النبي ﷺ: "يدخل عليكم رجل ينظر بعين شيطان أو بعيني شيطان – فدخل رجل عيناه زرقاوان. وكان عبد الله بن نبتل – الذي سب النبي ﷺ ونقل أخباره إلى اليهود وأقسام أمام الرسول ﷺ أنه لم يفعل ذلك. وهؤلاء القوم هم "حزب الشيطان" الذين أنساهم ذكر الله وباعوا الآخرة بالدنيا والجنة بالنار والهدى بالضلالة"[2].

وهؤلاء الذين اتخذوا أعداء الإسلام أولياء لهم قد خانوا الأمة الإسلامية خيانة عظمى ولذا تجرى عليهم الأحكام الإدارية التي توقعهم تحت طائلة أقصى العقوبة واجتماع المسلمين لقتال هؤلاء الخونة المنافقين الذين تعاونوا مع أعداء الإسلام وناصروهم ضد المسلمين لخدمة مصالحهم الدنيوية.

وتبرز صفات النفعية والانتهازية عند المنافقين عندما انخذل عبد الله بن أبي ابن سلول "في غزوة أحد لأنه لا يريد قتلا ولا يعرض نفسه لمخاوفه ومغباته. فهم

---

(١) محمد محمود حجازي، التفسير الواضح، م٣، دار التفسير، ص١١٢؛ الصابوني، صفوة التفاسير، ص٣٤٢.

(٢) القرطبي، تفسير القرطبي، م ، دار الريان للتراث، ص ٦٤٧٤، سيد قطب، في ظلال القرآن، جـ ، دار الشروق ن ص ٣٥١٣ ـ ٣٥١٤.

يريدون أن يأخذوا ما في الإسلام من غنائم ويبتعدون عما فيه من مغارم وأتعاب وإنما الذي يبقيهم على الإسلام أحد شيئين: "غنيمة يتوقعونها، أو مصائب ومحن يتوقونها، فهم يتعاملون مع الفريقين من المؤمنين والكافرين في حالة الغلبة والنصر بنفس الأسلوب الانتهازي بالتودد إلى المنتصر من الفريقين وإيهامه بأنهم كانوا معهم على الفريق الآخر أي الذي أصابته الهزيمة والانكسار وذلك حتى يشاركونهم في الغنيمة ويبعدون عن أنفسهم الأذى، فهم "ينتهزون الفرصتين ويتوقحون في هذا وذاك دون حياء ولا اعتداد بوفاء"[1] وقد صورهم الله سبحانه وتعالى في قوله تعالى: ﴿... مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ...﴾ [سورة المجادلة:١٤]. أي ليسوا من اليهود الخلص ولا من المؤمنين الخلص، فهم ليسوا من اليهود في حالة ضعف اليهود، لأن صحبتهم في هذه الحالة لا تعود عليهم بالنفع، وكذلك ليسوا مع المسلمين في نفس حالة الضعف لعدم استفادتهم بشيء يعود عليهم بالفائدة فهم دائما مع القوى لهثا وراء الغنيمة والمنفعة المؤقتة.

ومن الآثار التي نجمت عن موالاة المنافقين لأعداء الإسلام "التخذيل للمؤمنين ومحاولة الفت في عضدهم وتثبيطهم عن الجهاد في سبيل الله". وقد عني القرآن الكريم بالكشف عن كثير من ألوان التخذيل للمؤمنين عامة والمجاهدين خاصة لتكون عبرة للأبناء والأحفاد بعدهم حتى يكونوا على حذر، فقد أشاع هؤلاء القوم موت الرسول في غزوة أحد ليوهنوا من عزيمة المؤمنين،قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [سورة آل عمران:١٤٤].

---

(١) محمد محمد المدني، المجتمع الإسلامي كما تصوره سورة النساء، ص ١٣٨.

كما أشاعوا الأسف والندم على موت من خرج للجهاد والغزو، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى ... ﴾ [سورة آل عمران:١٥٦]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ... ﴾ [سورة آل عمران:١٦٨]، وقال تعالى: ﴿... لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ... ﴾ [سورة آل عمران:١٥٤]، وفضح الله تعالى تخذيلهم في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة النساء:٧٢، ٧٣]، وهم أنفسهم الذين أظهروا الطاعة والامتثال ولكن مع إخفاء العزم على المخالفة حين الأمر بالقتال، فيقول الله تعالى عنهم: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ... ﴾ [سورة النساء:٨١]، وإشاعة أخبار الحرب وهم لا يعرفون شرها من خيرها ولا ضارها من نافعها: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ... ﴾ [سورة النساء:٨٣]، ويصور الله سبحانه وتعالى تخزيل المنافقين في قوله تعالى: ﴿... مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ... ﴾ [سورة الأنفال:٤٩]، وظهرت صورتهم واضحة جلية عندما خرجت الأحزاب لمقابلة الرسول ﷺ وغزو المدينة واشتد الأمر على المؤمنين فقالوا: ﴿... مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [سورة الأحزاب:١٢]، ولذلك أخذوا خبر عدم الإنفاق على المؤمنين المجاهدين وعدم إعانتهم وتخذيلهم، ويرد الله عليهم بقوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة المنافقون:٧].

ولم تقتصر أخلاق المنافقين وسماتهم عند حد خذلان المؤمنين وموالاة أعدائهم بل تجرءوا على الإفساد بين المؤمنين، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ... ﴾ [سورة التوبة:٤٧] ، فيحرص المنافقون على إضعاف المسلمين وتفريق صفوفهم، ولذا بين الله سبحانه وتعالى أن المنافقين ليسوا من المؤمنين، كما أشاعوا الفتنة والإفساد في الأرض، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة البقرة:١١ :١٢].

ولأن حياة المنافقين قد انطوت على النفعية والانتهازية فقد اتخذوا من الخداع والرياء في العبادة ستارا ليحصلوا على أمن وثقة المسلمين، ولكن الله سبحانه وتعالى فضحهم وصورهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [سورة النساء:١٤٢] ، فهم يتكلفون في العبادة مع عدم الخشوع في الصلاة، والإسراع في أدائها، بل وصل الأمر بهم إلى التثاقل والكسل عند القيام لأداء الصلاة، وقد صورهم الرسول ﷺ في حديثه الشريف حيث قال: "تلك صلاة المنافق، تلك صلاة المنافق تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقر أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا"(١).

وقد انطلق المنافقون من خداعهم ورياءهم في العبادة للمؤمنين إلى الاستهزاء بالدين الإسلامي والمسلمين، فقد جبلوا على الاستهزاء بآيات الله والكفر بها، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ

(١) مسلم، كتاب المساجد، باب استحباب التبكير إلى العصر، جـ٥، ص ١٢٣.

﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [سورة البقرة:١٤ :١٥]

وقد حذر الله سبحانه وتعالى المؤمنين من مجالسة مثل هؤلاء أو الإقبال على أحاديثهم أو الرضا به حتى لا يشاركونهم في الإثم والمنكر والكفر وحتى لا يشجعونهم على الخوض في آيات الله، يقول الله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾﴾ [سورة النساء:١٤٠]، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [سورة الأنعام:٦٨].

وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علامة من علامات أهل الإيمان، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ...﴾ [سورة التوبة:٧١]، وبما أن المنافقين قد ابتعدوا عن حزب المؤمنين فأخذوا يدعون إلى المنكر وينهون عن المعروف، يقول الله تعالى: ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة التوبة:٦٧].

ومن صفاتهم التي تدل على انعدام الإيمان في قلوبهم أن يتحاكموا إلى الطاغوت يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ [سورة النساء:٦٠].

وكذلك من الظواهر الواضحة لسلوك المنافقين وخطرهم على الإسلام ظاهرة لمز المتطوعين في الصدقات، وتتمثل في السخرية من المتصدقين بالقليل، واللمز من المتصدقين بالكثير بأنه رياء، فيقول الله عنهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [سورة التوبة:٧٩] ، وعن أبي حاتم عن عكرمة قال: "حيث رسول الله ﷺ على الصدقة – يعني في غزوة تبوك – فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف، فقال يا رسول الله، مالي ثمانية آلاف، جئتك بنصفها وأمسكت نصفها، فقال: "بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت". وتصدق يومئذ "عاصم بن عدي" بمائة وسق من تمر، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر، فقال المنافقون: ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياء، وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليذكر بنفسه، فنزلت الآية"[1].

ووصلت السفاهة بالمنافقين السفهاء أن رموا المؤمنين بالسفة، فيقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة البقرة:١٣] ، وهنا تصور الآيات الجهل والغرور للفريقين من اليهود والمنافقين الذين يرمون المؤمنين الذين آمنوا بالسفة، ولكن حقيقة الأمر أنهم هم السفهاء ولكن غرورهم وجهلهم يصور لهم غير ذلك[2].

ولبس المنافقون في كل أعمالهم لباس البخل، ويصورهم الله في قوله: ﴿ ۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ

(١) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، جـ١، ص ١٥٩.
(٢) محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، جـ١، ص ١٥٩ – ١٦٢.

فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [سورة الأحزاب ١٨ :١٩] . وهذه الآيات تدل على أن في نفوس المنافقين: "كزازة على المسلمين: كزازة بالجهد وكزازة بالمال وكزازة في العواطف والمشاعر على السواء. ويصور الله سبحانه هذا الصنف الجبان في صورة مضحكة تثير السخرية من هذا الصنف الذي تنطق أوصاله وجوارحه في لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوار وأشد إثارة للسخرية صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويجئ الأمن خرجوا من الجحور وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش وانتفخت أوداجهم بالعظمة ونفشوا بعد الانزواء وادعوا في غير حياء ما شاء لهم الادعاء من البلاء في القتال والفضل في الأعمال بتبجح وطول لسان، ولذا أحبط الله أعمالهم ولم ينجحوا لأن عنصر النجاح ليس هناك وكان ذلك على الله يسيرا، وليس هناك عسير على الله وكان أمر الله مفعولا"[1].

وللمنافقين صفات أخرى كثيرة ذكرتها آيات القرآن الكريم، وحديث آيات المنافق الذي فصله الرسول ﷺ منها: "الغدر وعدم الوفاء بالعهد مع الله". فيقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [سورة التوبة ٧٥ :٧٨] ، وقد نزلت هذه الآيات في ثعلبة بن حاطب "وله قصة مشهورة في طلب الثراء وعده مع الله سبحانه وتعالى، كما وصل بهم الأمر إلى

(١) منير الغضبان، المنهج للسيرة النبوية، ص ٢٣٨.

الشك في وعد الله: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الأحزاب:١٢] .

هذا فضلا عن التقاعد والتخلف عن الجهاد، فيقول الله تعالى: ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ... ﴾ [سورة التوبة:٨١] ، وقد بلغ بهم النفاق بلين القول وحلاوة اللسان إلى اللدد في الخصومة، يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ [سورة البقرة:٢٠٤]، وعدم الثبات على حال من الإيمان، والتزلزل في علاقتهم بالله، يقول الله عنهم: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ ﴾ [سورة النساء:١٣٧] ، ومن الجدير بالملاحظة أن هؤلاء المنافقين قد حازوا كل هذه الصفات وتخلقوا بكل هذه الأخلاق السقيمة نتيجة مرض قد أصابهم في قلوبهم وعقولهم أدى بهم إلى الفساد في العقيدة والانحراف عن منهج الإسلام المستقيم، وإتباع طريق الهوى والضلال، فيقول الله تعالى: ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ... ﴾ [سورة البقرة:١٠].

وذكر بعض المفسرين أن سبب نزول الآية الكريمة: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [سورة التوبة:٧٥] ما حدث مع "ثعلبة بن حاطب الأنصاري" حيث قال لرسول الله ﷺ: "ادع الله أن يرزقني مالا، فقال رسول الله ﷺ: "ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه"(١). وهذا الحديث احتج به الغزالي وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديث الأحياء، سندها ضعيف كما رواه الطبراني والبيهقي في "الدلائل" كلهم من

(١) تفسير القرطبي، م ٥، دار الريان للتراث، ص ٣٠٤٨.

طريق علي بن يزيد الألهاني عن القاسم بن عبد الرحمن بن أبي أمامه، وهذه القصة- رغم شهرتها بين أهل التفسير- فهي محل نظر في السند والمعنى والأصول.

أولاً: فيما يتعلق بالسند: في روايته معان بن رفاعة والقاسم بن عبد الرحمن وعلي ابن يزيد وهو أبو عبد الملك الألهاني، وكلهم ضعفاء ومسكين بن بكير ليس بالقوي[1]، وقال الهيثمي في المجموع، وفيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك.

ثانياً: أما المعنى: لأن الله تعالى أمر بقبض ذكوات أموال المسلمين، وأمر عليه الصلاة والسلام عند موته أن لا يبقى في جزيرة العرب دينان فلا يخلو ثعلبة من أن يكون مسلما، ففرض على أبي بكر وعمر قبض زكاته ولابد ولا فسحة في ذلك، وإن كان كافرا ففرض أن لا يقر في جزيرة العرب فسقط هذا الأثر بلا شك.

قال القرطبي: وثعلبة بدري أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان، فما روى عنه غير صحيح، بدري أي من أهل بدر حيث قال فيهم رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه "وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم". رواه البخاري في كتاب المغازي باب فضل من شهد بدرا جـ٧/٣٠٤.

وعن جابر رضي الله عنه أن عبدا لحاطب جاء رسول الله ﷺ يشكو حاطبا فقال يا رسول الله: ليدخلن حاطب النار فقال رسول الله ﷺ: كذبت، لا يدخلها فإنه شهد بدرا والحديبية (رواه الإمام مسلم في كتاب فضائل الصحافة باب فضائل أهل بدر رضي الله عنهم ١٦/٥٧ بشرح النووي).

---

(١) المحلى لابن حزم، جـ١١، ص ٢٠٨.

وعند الإمام أحمد: لن يدخل النار رجل شهد بدرا والحديبية (أخرجه الإمام أحمد في المسند ٣/٣٩٦).

فكيف نقول في حق رجل شهد له النبي ﷺ بالجنة في الجملة بأنه مات على النفاق، وكيف ترد هذه الأحاديث الصحيحة بمثل هذه القصة الواهية.

ثالثاً: أما مخالفتها للأصول: لأن فيها مخالفة لأصل من أصول الشريعة الإسلامية وهو قبول التوبة من التائب، فمهما بلغت ذنوبه عنان السماء ثم تاب تاب الله عليه، وهذا ما بينه الله في كتابه في قوله سبحانه: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة الزمر:٥٣]، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [سورة النساء:١٧].

وعن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها"(١).

وهناك آراء أخرى حول شخصيات غير "ثعلبة بن حاطب الأنصاري" فقال الضحاك: إن الآية نزلت في رجال من المنافقين" نبتل بن الحارث، وجد بن قيس، ومعتب بن قشير"، قال القرطبي: وهذا أشبه بنزول الآية فيهم ويكون

(١) مسلم، كتاب التوبة، باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت الذنوب، جـ٤، ٢١١٣.

المعنى: زادهم نفاقا ثبتوا عليه إلى الممات وهو قوله: "إلى يوم يلقونه" وقال قتادة: هو رجل من الأنصار، ولم يسمه باسمه.

ويورد لنا أحد العلماء[1] حديث ثعلبة مطولا حيث قال لرسول الله ﷺ: "ادع الله أن يرزقني مالا. فقال رسول الله ﷺ: "ويحك يا ثعلبة، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه. ثم قال ثعلبة مرة أخرى فقال له رسول الله ﷺ أما ترضى أن تكون مثل نبي الله؟ فوالذي نفسي بيده لو أردت أن تصير الجبال معي ذهبا وفضة لصارت. قال: والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالا لأعطين كل ذي حق حقه. فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزق ثعلبة مالا. فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود. فضاقت عليه المدينة، فتنحى عنها، فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما، ثم نمت وكثرت. فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة. وهي تنمي كما ينمي الدود حتى ترك الجمعة. فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار. فقال رسول الله ﷺ: ما فعل ثعلبة؟ "فقالوا يا رسول الله اتخذ غنما فضاقت عليه المدينة... فأخبروه بأمره. فقال: يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة" وأنزل الله عزوجل "خذ من أموالهم صدقة" ونزلت فرائض الصدقة. فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصدقة من المسلمين. وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين. وقال لهما: "مرا بثعلبة وبفلان – رجل من بني سليم – فخذا صدقاتهما "فخرجا حتى أتيا ثعلبة. فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله ﷺ. فقال: ما هذه إلا جزية. ما هذه إلا أخت الجزية. ما

---

(١) أبو الهيثم صقر جندية، "أباطيل المفسدين حول ثعلبة ﷺ" مجلة التوحيد، العدد ٧، رجب ١٤٠٤هـ ص ٣١ ـ ٣٣.

أدري ما هذا، انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلي. فانطلقا وسمع بهما السليمي، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزلها للصدقة، ثم استقبلهما بها، فلما رأوها قالوا: ما يجب عليك هذا، وما نريد أن نأخذ هذا منك، فقال: بلى فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال: أروني كتابكما، فقرأه فقال: ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية: انطلقا حتى أرى رأيي فانطلقا حتى أتيا النبي ﷺ، فلما رآهما قال: "يا ويح ثعلبة" قبل أن يكلمهما، ودعا للسليمي بالبركة، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السليمي فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ ...﴾ [سورة التوبة:٧٥]، وبعد نزول الآيات علم ثعلبة فجاء إلى رسول الله ﷺ نادما تائبا يقدم الصدقة فلم يقبلها، فلما قبض رسول الله ﷺ عرض الصدقة على أبي بكر فلم يقبلها ثم عرضها على عمر فلم يقبلها حتى هلك ثعلبة في زمن عثمان".

ونقول إن هذه الرواية باطلة، لأن ثعلبة كان بدريا أي من أهل بدر حيث قال فيهم رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه: "وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم" وثعلبة هذا ممن شهدوا بدرا.

وهذا الحديث الذي ورد في أهل بدر لا يكون مسوغا لهم في ارتكاب أفعال مخالفة للإسلام حتى ولو كانت من الصغائر "إذا عاهد غدر..." وقد عاهد هذا الرجل الله ورسوله إذا ما أتاه الله مالا أن يتصدق به، وقد أتاه الله، ولكنه نقض العهد فدخل بذلك في زمرة المنافقين، والله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يقصد من وراء كلمة "فافعلوا ما شئتم" أن تكون أفعالا مثل هذه، ولكن هذا الكلام يوحي بإكرامهم

وغفران ذنوبهم وحسب، ولا يعقل أن يفعل البدريون مثل هذه الأفعال المنافية لأسس الإسلام الحنيف، هذا من ناحية.

ومن ناحية ثانية فإننا نرى أن القصة باطلة بالفعل من خلال بعض أقوال في الرواية، فكون هذا الرجل قد منع الزكاة فقد أصبح مرتدا إذا كان مفتقدا عدم فرضيتها، وكونه قد منع الصلاة فقد أصبح كافرا إذا كان معتقدا عدم فرضيتها كما أن مصطلح "الجزية" التي قال بها هذا الرجل لم يكن سائدا في ذلك الوقت فالجزية لم تفرض إلا على أهل الذمة في البلاد المفتوحة والذين ظلوا على دياناتهم السابقة، وفرضت على الذميين كضريبة حماية ودفاع، وهذا لم يحدث إلا بعد وفاة الرسول ﷺ وبداية الفتوحات الإسلامية، فلم تحدث الفتوحات الإسلامية إلا في عهد أبي بكر والخلفاء من بعده، أما في عهد الرسول ﷺ فلم يكن هناك ذميين في الدولة الإسلامية الناشئة في مكة والمدينة، وهذا يدل على أن الرواية مختلفة من أساسها وقد أوتي بها بعد الرسول ﷺ للذم في بعض صحابة الرسول ﷺ والذين لم يصدق عليهم ارتكاب أفعال منافية للإسلام مثل هذه الأفعال.

وبعد ذلك تؤكد على أن الآيات الكريمة "ومنهم من عاهد الله..." أنها قد نزلت في بعض المنافقين الخلص الذين عرفوا بالنفاق منذ بداية الإسلام، وليس من صحابة الرسول ﷺ ، ويحتمل أن هذه الآيات قد نزلت على سبيل التحذير للمسلمين من ارتكاب أفعال تدخلهم في زمرة النفاق والمنافقين خاصة وأن من علامات النفاق" من عاهد غدر..." وأن الإسلام يصلح لكل زمان ومكان.

وبعد أن كشف القرآن الكريم حقيقة النفاق والمنافقين وفضح سوء نياتهم وخبث طوياتهم وقبح أفعالهم وخطرهم على الإسلام والمسلمين كان على الداعية أن يقف منهم وقفة المجاهد انطلاقا من أمر الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ بمجاهدتهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ...﴾ [سورة التحريم:٩] [سورة التوبة:٧٣] . وتتمثل هذه المجاهدة في بذل الداعية جهده في تعرية المنافقين وبيان أخلاقهم وصفاتهم للمدعوين وأن يكون قبل ذلك مجتنبا لأخلاقهم ومخالطتهم وألا يقع في مزالق أي نوع من أنواع النفاق الاعتقادي أو العملي، وأن يكون له درسا من إملاء الرسول ﷺ عدد المنافقين على سيدنا "حذيفة" وأمره له بعدم الصلاة على أحد منهم مات أبدا.

ولا أعتقد داعية يدعو إلى الله على هدى وبصيرة ويؤمن بالله واليوم الآخر ينحدر بمعتقده ودعوته إلى مستوى النفاق الاعتقادي، ذلك لأن النفاق يخرج صاحبه من الإسلام ويوقعه في الردة، بل يقذف به إن مات على ذلك في الدرك الأسفل من النار خالدا فيها أبدا، نعم قد ينزلق الداعية في بعض مواقفه وتصرفاته من حيث يعلم أو لا يعلم في أي منحدر إلى النفاق العملي كأن ينافق للحكام الظالمين أو يحاكي الفساق، أو تظهر منه خصلة من خصال النفاق المعروفة والتي سبق تفصيلها.

والأقبح من ذلك كله أن يعطي الانقياد والطاعة لحزب ضال أو رئيس ملحد أو هيئة لا دينية خارجة عن الإسلام، فهذا الانقياد والطاعة إذا وصل بالداعية إلى حد الولاء والإخلاص وتنفيذ الكفر ومخططاته والإلقاء إلى أولئك بالمودة والمحبة فيكون

قد انحدر – لا سمح الله – إلى مستوى النفاق الاعتقادي الذي يحبط العمل ويخرج من الملة ولقد قال الله عز وجل عن هذه الزمرة المنافقة الضالة[1]. ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤)﴾ [سورة الكهف ١٠٣ : ١٠٤] .

الا فيلحذر الدفتنة المصالح والجناه وليراقبوا المولى صبحانه في حركاتهم وسكناتهم وليحاسبوا أنفسهم في سرهم وجهرهم وليحرروا النية في كل مواقفهم الدعوية والتبليغية وليعلموا أن الله سبحانه سائلهم عن نياتهم وأعمالهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، "وهناك فرق بين النفاق والمداراة التي هي أين الكلام لبعض الناس من الكفار أو المنافقين أو السفهاء أو الأشراء إتقاء لشرهم بشرط ألا ينطوي قلبه على شيء من محبتهم ومودتهم وموالاتهم، وألا يعمل ماهو محرم كان يستخدم ليكون عينا على المسلمين وبث الفتنة والعداوة بين جماعات المؤمنين".

وقد أعد الله للمنافقين العذاب الشديد في الدنيا والآخرة، فقد أمدهم الله بالأموال والأولاد في الدنيا لتكون لهم عذابا وشقاء ليعذبهم بها، إذ يسبب لهم المال الهم والغم والمشكلات دون أن يستمتعوا به، ويجعل الله أولادهم أعداء لهم يتمنون موتهم ليرثوا هذه الأموال، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾

(١) عبد الله ناصح علوان، عقبات في طريق الدعاة وطرق معالجتها في ضوء الإسلام، ص ٤٩ – ٥١.

[سورة التوبة:٥٥] ، كما أعد الله لهم العذاب المهين في الآخرة جزاء أفعالهم القبيحة التي اقترفوها ضد المؤمنين في الدنيا فيقول تعالى:

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [سورة المجادلة:١٥]

ويقول الله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [سورة المجادلة:١٦]

ويقول تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ﴾ [سورة النساء:١٣٨]

ويقول سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ ﴾ [سورة النساء:١٤٥] .